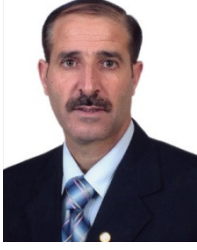


مفهوم الخطاب في المدارس اللسانية المختلفة



الدكتور: خزيم سالم علي الخزام*
كلية الخوارزمي الجامعية الدولية // قسم الاعلام
البريد الإلكتروني: khazeem2010@yahoo.com

ملخص الدراسة :

تهدف هذه الدراسة التعرف إلى الخطاب ضمن أطروحات المدارس اللسانية المتعددة ، وما قدمه المفكرين والباحثين برؤى متنوعة وأفكار متداخلة منها ما هو طرح نظري وآخر تطبيقي، وعوامل أو ظروف إنتاج الخطاب المتكون من المتكلم والرسالة (الخطاب) عبر عصري الزمان والمكان وصولاً إلى المستمع. وتبين الدراسة الخطاب ضمن منظور عربي تراثي. وفي الدراسات الحديثة منها المدرسة الفرنسية وأطروحات المفكر فوكو (Foucaiot) ، ودي سوسير (Desoussur) وهلمسليف، وبول ريكو (P . Recourd) ، ومانجتون (Mainguenu) نوهليدي (Hallidy) وأطروحات أيضا بارت (R.Barthes) وروجر فاو لروسارة ميلز، ومن أبرز ما وصلت إليه الدراسة إن الخطاب أداة أساسية في التواصل تحكمها قوانين وقواعد اجتماعية ولغوية. والخطاب يمكن وصفه بأنه تواصل تفاعلي مغلق وتداولي، وأنه توسع وأصبح فضاضاً يحتوي جميع العلوم والمعارف حسب الزاوية المنظور منها والحاجة التي يؤديها. أما مناهج وطرق تحليل الخطاب تنطوي على منهج تحليل المضمون في العلوم الاجتماعية ، ومنهج التحليل اللغوي ، ومنهج التحليل اللغوي النفسي ، وهناك منهجاً خاصاً في التحليل اللغوي الخالص كما في علم اللسانيات (General Linguistics) .

Abstract:

This study aims to identify the speech within the arguments of several linguistic approaches, and what the thinkers and researchers provide overlapping variety visions and ideas include theoretical and applied. The production factors or conditions of speech contains from the speaker and the message (the speech) via a time, place and listener. The study shows speech via Arabiya heritage. In recent studies, including the

*الدكتور خزيم سالم الخزام // استاذ مساعد // قسم الاعلام // كلية الخوارزمي الدولية

French school, include articles of Foucaiot, Desoussur, P. Recourd, Mainguenu, Hallidy, R. Barthes and Roger Fowler and Sarah Mills. The most prominent of the study conclusion shows the speech is an essential tool in communicating. It is governed by the laws and social and linguistic rules. The speech may be described as closed interactive communicative and deliberative. It has expanded include all science and knowledge based on its perspective and the need performed. The curricula and analysis speech methods include approach of analysis content in the social sciences, approach of analysis linguistic, and approach of analysis linguistic psychological. Also there is a special approach in linguistic analysis, as in pure linguistics (General Linguistics)

مقدمة:

لقد تمّ تناول الخطاب منذ فجر التاريخ بصور مختلفة تتفاوت بحسب المرجعية الحضارية لكل أمة، وكان التركيز يتمّ - عادة - على الخطاب الديني - بأشكال المختلفة - والخطاب الفلسفي¹. ومع ظهور المنجزات العلمية والتكنولوجية الحديثة، وبناء الحقول المعرفية والعلمية المتميزة والمستقلة ومنها ظهور علم اللسانيات الحديث، وما تبعه من تطوّر المناهج اللغوية والنقدية، تخلّقت منظومة متكاملة للخطاب بصورة وأنماطه المختلفة، وقد تحول تحليل الخطاب "إلى مناهج تحليلية مضبوطة، منهج تحليل المضمون في العلوم الاجتماعية لتحليل الخطاب الديني أو الخطاب السياسي ..، منهج التحليل اللغوي النفسي كما هو الحال في علم اللسانيات النفسي Psycho-Linguistics من أجل معرفة دلالة الألفاظ على نفسية قائلها، ومنهج التحليل اللغوي الاجتماعي من أجل معرفة الدلالات العرفية والاستعمال الاجتماعي للغة، كما هو الحال في علم اللسانيات الاجتماعي Social Linguistics. ومنهج التحليل اللغوي الخالص كما هو الحال في علم اللسانيات العام General Linguistics من حيث علوم الأصوات والقراءات والتراكيب"².

مفهوم الخطاب:

يتردد لفظ الخطاب كثيراً بالاقتران بوصف آخر، مثل الخطاب الثقافي، الخطاب الصوفي، الخطاب السياسي، الخطاب التاريخي، الخطاب الاجتماعي.

ولذلك ورد الخطاب بتعريفات متنوعة في هذه الميادين العديدة، بوصفه فعلاً، يجمع بين القول والعمل، فهذا من سماته الأصلية. وليس في هذا تشتت بقدر ما فيه من غنى وسعة في التصنيف، وقد ورد لفظ الخطاب عند العرب قديماً، كما ورد عند الغربيين، مع درجات من التفاوت أو التقارب في معناه.

تستند نظرية الخطاب اليوم على نظرية التواصل، ويتجدها هذا الإسناد في كون الخطاب - كيفما كان شكله ومحتواه - إنما هو خطاب تشاركي، أي أننا لا نستطيع أن ننجز الجملة اللغوية إلا إذا جمعنا سياق معين بما ننجز له هذه الجملة، ولذلك فإن الخطاب تواصل بين شخصين على الأقل، لا يمكن لأي واحد منهما أن ينجز عبارته إلا إذا استحضر في ذهنه مخاطبة.

ويمكن الجانب التشاركي من الخطاب في الطاقة التفاعلية التي يمتلكها كل طرف، يقصد أن ينجز الخطاب فعاليته - ومعنى هذا أن الخطاب ينقسم بالضرورة، وضمن التواصل التفاعلي طبعاً - إلى:

1- المستوى التقني.

2- مستوى الدلالة.

3- مستوى الفعالية.

ثم تكون المنتجة للخطاب ذاتاً تشاركية، تنجز المستوى الأول والثاني بقصد ضمان فعالية خطابها.

ولذلك فإن الخطاب ليس جملة مطولة أو مجموعة من الجمل التي ينضاف بعضها إلى بعض، كي تكون عبر ذلك محتوى متجامع من المحتويات الجزئية.

وكذلك لا يمكن أن يكون الخطاب دلالة كلية، نتوخى فهمها وتأويلها عبر تحليلها وفق ما يسمى بالكلمات المحورية أو الكلمات المفاتيح.

إن هذين الفهمين معاً، لا يكادان يجاوزان الفهم الآلي للجملة المفردة، وللجمل المجتمعة، هذا الفهم الذي يعتقد أصحابه بدءاً بشانون وويفر وانتهاء بجان ميشيل آدم Jean Michel Adam، إن الكلام ذو اتجاه سطري، يسير باستمرار من المتكلم إلى المخاطب، كي يؤثر فيه، فيكون الكلام قد ينتجه بإزاء خطاب معين مجرد رد فعل ممتد بامتداد هذا الخطاب.

إن الخطاب - بحسب نظرية التواصل التفاعلي - يتكون من مجموع العمليات التفاعلية التي تنشأ بين المتكلم والمخاطب، ابتداء من انبثاق الخطاب وإلى حدود ما بعد نهايته، أي إلى حدود ما بعد الأثر الكلي للخطاب، حيث يمتد التفاعل يستمر حتى في حالة غياب المتكلم والمخاطب المفترضين في بداية عملية الانبثاق.³ وينتج عن ذلك:

- (أ) أن الخطاب ليس هو الجملة اللغوية. أي أنه إذا افترضنا بأن الفعالية هي أن يسير المخاطب في الاتجاه المرغوب فيه طرف المتكلم، يمكننا أن نقول بأن اللغة والكلام إنما هما وسيلة التواصل، ولكنهما ليسا محتواه. وبذلك تكون اللغة هنا مجرد وسيلة أو وساطة للتفاعل. اللهم إلا إذا كانت الفعالية المفترضة فعالية لغوية محضاً. كأن نتأثر بقصيدة شعرية في مستوى جمالتها، أو اتجاه فني في حدود الشكلية الصرف.
- (ب) أن للخطاب ذاتاً منتجة تتوخى حدوث فعالية معينة، فتراعي في ضوءها استحضار مخاطب مفترض كما يمارس خطابها هذا الفعالية. ولذلك فإن حدود الانتشار نابعة - بحسب هذا الفهم - من وحدات خبرية ووصفية ومعرفية تتنوع محتوى الخطاب، وعن طريقها يمارس المتكلم والمخاطب عمليات التفاعل فيما بينهما.

إن الذات المنتجة للخطاب ذات إنسانية تفكر وتمارس السياسة وتنفعل وتسرد أو تصف، ثم تبقى في المحصلة الأخيرة ذاتاً متفاعلة، تفكر وفق وحدات معرفية، عن طريقها تستدرج المخاطب، وتعبّر عن انفعالها ليشاركها هذا المخاطب انفعالها، وتمارس الخطاب السياسي بقصد يسير المقصد في الاتجاه المرغوب فيه من طرفها.⁴

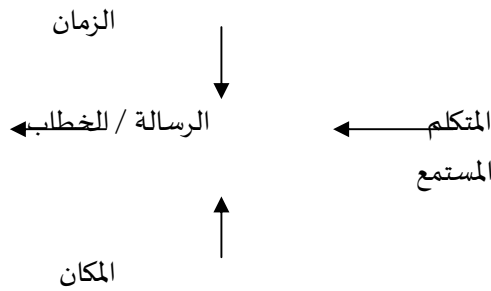
النظريات اللسانية تختلف في تصورها لمفهوم الخطاب، فإذا كان البنيويون يرون الخطاب وحدة من وحدات اللغة (langue) ويقترحون معالجته على هذا الأساس وهذا هو مذهب التوزيعيين (Harris)، الذي يذهبون إلى جعل مفهوم الخطاب شبيهاً بمفهوم الجملة، وهو ما يترتب عنه أن الخطاب بنية يمكن أن تعالج بنفس الإجراءات التي تعالج بها الجملة، أي انطلاقاً من تحديد العلاقات التي تحكم وحداته، أي باعتماد التحليل إلى المكونات المباشرة؛ إذا كان هذا موقف

البنويين بصفة عامة، فإن ثمة تصوراً آخر يربط الخطاب بالتواصل، في إطار هذا المنظور الثاني سنحاول معالجة موضوعنا.⁵

معنى ذلك أننا سننظر إلى هذا الخطاب على أساس كونه نتاج عمليات لغوية محكومة بظروف إنتاج زمانية ومكانية محددة، فالمنطلق الذي ستنتقل منه إذن منطلق تداولي يراعي ربط الظاهرة المراد وصفها بالواقع غير اللغوي، أي بظروف إنتاجها. سنتعامل إذن مع هذا الخطاب بوصفه استعمالاً للغة بهدف تحقيق أغراض تواصلية معينة، أي أفعال لغوية خاصة. فنظرنا للخطاب لن تكون نظرة المؤرخ أو عالم السياسة الذي يسعى إلى التاريخ للأفكار، بل ستكون نظرة اللساني التداولي، الذي يبحث في الكيفية التي استعملت بها اللغة الطبيعية، أي في قصد المتكلم من استعماله لعبارة لغوية ما، إن ما يبرر اعتمادنا لهذا المنظورة اعتقادنا أن اللغة الطبيعية هي قبل كل شيء أداة للتواصل، أي التفاعل الاجتماعي. فاللغو من هذا العبارة اللغوية، بل يتم استنباطها عبر استدلالات منطقية لا يتضمنها النسق اللغوي، وإنما تحددها عوامل سوسيو – ثقافية.⁶

1) عوامل أو ظروف إنتاج الخطاب:

نقصد بعوامل أو ظروف إنتاج الخطاب، وما يصطلح عليه في الأدبيات التداولية بعناصر الموقف التواصلية، لقد درج التداوليون على القول إن عناصر الموقف التواصلية تتكون من: المتكلم والمستمع والزمان والمكان والرسالة أو الخطاب، وهو ما يمكن التمثيل له على النحو التالي:



يختلف التداوليون في تصوراتهم لطبيعة البحث التداولي، وذلك باختلاف منطلقاتهم النظرية (الفلسفة، المنطق، اللسانيات، علم الاجتماع ...) غير أن الاتفاق يكاد يكون حاصلاً بينهم بخصوص طبيعة العالم الخارجي. فالمتكلم والمستمع ينظر

إليها على أساس أنهما شخصان موجودان في الواقع لهما سمات مرجعية محددة، وكذلك الشأن بالنسبة لعنصري الزمان والمكان فهما الآخران موسومين بالفيزيائية، إذ يقصد بالزمان زمن القول، أي زمان التلفظ وبالمكان مكان التلفظ كذلك، ما الرسالة أو الخطاب فيراد به العلامة اللغوية المستعملة للتواصل صوتية كانت أو غير صوتية، هذه العناصر تسمى أيضاً بالفرائن الإشارية، وتشمل الأسماء ضمائر الشخص أو الزمان أو المكان التي تساعد في تحديد ظروف إنتاج الخطاب.⁷

إنه لمن السمات المبدئية أن الذات المنتجة للخطاب المفهومي ذات تفكر عن طريق المفاهيم، ولذلك فإنها تنتج المفاهيم الجزئية والكلية التي تكون خطابه، ومعناه أن هذه المفاهيم هي المستوى التقني لخطابها، أي أن اللغة ليست سوى قالب شكلي ذي محتوى مفهومي، ينقسم في هذا الحال إلى مستويين اثنين، وهو ما يمكن توضيحه عن طريق الترسيمية التالية:

- لغة: بنية صوتية: تركيب : الدلالة.

التقنية: 2

مفاهيم: بنية جزئية: تركيب: دلالة

ولنا في تجربة الأستاذ عبد الله العروي ما يبرر كل هذا الذي نزعمه من أن الخطاب الفكري خطاب مفاهيمي، يختلف اختلافاً جذرياً عن غيره من أنواع الخطاب التي قد تعتمد اللغة بشكل مباشر كالخطاب اليومي والصحفي والسياسي والوصفي.⁸

السلام

في شأنهم. وفي التهذيب قال بعض المفسرين في قوله

تعالى

(سورة ص: الآية 20) ، قالوا هو الحكم بالبينة واليمين، وقيل معناه يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده، أو هو الفقه في القضاء، أو هو النطق بـ (أما بعد) وداود عليه السلام أول من قال إما بعد.⁹

أما الخطابة فهي فن نثري هدفه إقناع السامعين، فهو إلقاء يكتب أو يرتجل ليسمع لا ليقرأ، وقد وضع أرسطو قواعد الخطابة وعرفها بأنها القدرة على الكشف النظري عن وسائل إقناع الخاصة بكل حالة من الحالات كالقضاء أو الشورى أو الدعوة أو الحرب أو التحكيم، وهدف من دراسة الخطابة إلى توضيح الأسس الفنية التي تجعل الخطيب قادراً على الدفاع عن الحق وكشف السفسطة والحجج الملتوية ولذلك تستفيد الخطابة من وسائل المنطق المختلفة.

هذا ويمكن القول بأن الخطابة قد أثرت كثيراً في تخلف الكتابة عند العرب وربما رجع ذلك إلى سبب ديني فالنبي صلى الله عليه وسلم تلقى الوحي من ربه على شكل خطابة بواسطة جبريل عليه السلام الأمر الذي جعل العرب ينظرون إليها نظرة إكبار وإجلال أكثر من الكتابة، يضاف إلى ذلك أن العربي كان يرى عجزاً أو تقصيراً في قدرته إذا القى خطبة مكتوبة.¹⁰

الخطاب من منظور عربي تراثي:

تعددت التعريفات والمحددات التي جهدت في تقديم تصور واضح لمفهوم "الخطاب"، وماهية موضوعه الذي يدرسه، وجاء هذا تقارباً أو تباعداً أو تقاطعاً أو تكاملاً، وذلك بحسب المرجعيات العلمية التي يستند إليها الدارسون، وربما أسهم شيوع الكلمة في تمييع مدلولاتها، وإضفاء مفهوم ضبابي – كما يرى كثير من النقاد – يجعله يتداخل مع غيره من المفاهيم، كالتداخل القائم بين "تحليل الخطاب" و "علم اللسان: وبين "الخطاب" و "النص"، وغير ذلك، وشيوع مفردة "خطب" أوجد لها سياقاً تداولياً ممتداً عبر التنظير اللغوي والفكري التاريخي في الحضارات

المختلفة، في التاريخ العربي والإسلامي، نعثر على مساحة جيدة تداولت المصطلح - قبل أن يستقر في مفهومه الغربي الراهن.¹¹

وفي "اللسان": "الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، مخاطبة وخطاباً، وهما يتخاطبان".¹² وهذا مفهوم يجعل الخطاب يقابل مصطلح الكلام لا اللغة، وهذا ما يراه الدارسون الغربيون اليوم، كما انه يستدخل عناصر الخطاب الرئيسين: البثّ والمتلقي، ويستدخل مفهوم "الحوار" وهو مفهوم أساس في علم تحليل الخطاب الحديث في كثير من الدراسات، ويورد "الكفوي" في معجمه "الكليات" بعض التعريفات لمصطلح "خطاب" قبل تخصيص الحديث عن الخطاب القرآني وأنواعه، ومن ذلك بأنه: "اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إلهام من هو متبرئ لفهمه".¹³ و "هو الكلام اللفظي أو الكلام النفسي الموجه نحو الغير للإلهام"¹⁴، ولم تخلُ بعض كتب أصول الفقه من ذكر لمصطلح الخطاب وفق رؤية فقيهيه خاصة تركز على مصطلحات من مثل: خطاب الله تعالى، وخطاب الشارع الحكيم.¹⁵ وهذا مما يرتبط بمفهوم "الخطاب الديني" في الفكر الإسلامي ضمن الإطار العام لاشتغال الخطاب، بعيداً عن الدرس اللساني الخالص بالمفهوم المعاصر.

وأما على الصعيد الممارسة التطبيقية التراثية لما قد يندرج تحت علم تحليل الخطاب بالمعنى الحديث، فقد تتبع باحث عربي معاصر الدراسات النصية العربية التراثية، مما يمكن أن يندرج تحت "لسانيات الخطاب" بصفة عامة، و"انسجام الخطاب" بصفة خاصة، ذلك في علوم البلاغة والنقد الأدبي وتفسير القرآن الكريم.¹⁶

وفي النقد الحديث ذكر الغدامي في كتابه الخطيئة والتفكير تعريفاً للخطاب فجعله موازياً للغة أو بالأحرى موازياً للغة المستعملة فقال: (...وانطلقت في تصورها النظري للتفريق بين اللغة كنظام من الاختلافات وبين الحدث الخطابي الذي يتمخض عنه ذلك النظام وتكون حينئذ بين مفهومين ثنائييه ما (اللغة/ والخطاب) فاللغة هي المخزون الذهني الذي تمتلكه الجماعة بينما (الخطاب) هو ما يختاره المتحدث من ذلك المخزون ليعبر به عن فكرته أو رسالته حسب عناصر الرسالة وهي:¹⁷

سياق رسالة

مرسل

مرسل

إليه

وسيلة شفيرة

الخطاب في الدراسات الحديثة:

ورد في موسوعة لالاند الفلسفية أن الخطاب: (Discourse) عملية فكرية تجري من خلال سلسلة عمليات أولية أو جزئية أو متتابعة، وأنه - أي الخطاب - بنحو خاص تعبير عن الفكر وتطويع له بسلسلة كلمات، أو عبارات متسلسلة.¹⁸

وفي معجم المصطلحات الفلسفية يعرف الخطاب بأنه الكلام الخارجي مع الآخر الذي يقصد به الإقحام.¹⁹

وفي معجم اللسانيات الحديث يترجم الباحثون Discourse بـ "الحديث (الكلامي)"²⁰، وهي ترجمة غير دقيقة، وفي تعريف هذا المصطلح نقراً: "يشير المصطلح إلى أجزاء من اللغة أكبر من الجملة، يتلفظ بها المتكلم خلال عملية التواصل أو التفاهم مع غيره كما نرى في المحادثات والأحاديث الصحفية والنصوص".

وتأسس مفهوم الخطاب²¹ مبدئياً من الكلمة الفرنسية (discourse) التي تعني الحوار والكلام والحديث، وهي الأخرى مشتقة أساساً من اليونانية (discursus) التي تعني الحركة من حول، فالمصطلح هنا هو فعل وأسم في آن معاً، ثم إن هذا التنميط الخاص ما لبث أن تطور في مرحلة ما بعد البنيوية، وأصبح لا يشير إلى المنظومة الشكلية للغة وإلى عملية إنتاج المعنى، ولكن إلى مخرجات ونتائج هذه العملية مجتمعة.

ويقترن مفهوم الخطاب بما أنجزه الفرنسي (فوكو Foucaiot) فهو مفهوم مرادف لطرق التفكير والعرض والفعل والتجسيد، بالإضافة إلى الأشكال اللغوية المستخدمة ضمن إطار التفاعلي الاجتماعي.

ونلاحظ هنا صلة بين الخطاب كرابط لغوي وبين الممارسة اللغوية في النسق الاجتماعي وذلك من خلال الخطاب التقليدي في نطاق المجتمع، فالخطاب يوفر هنا قيمة للحقيقة الاجتماعية ويعمل على تأسيسها، أي تحويلها إلى نسق

اجتماعي مؤسسي في المجتمع، فالخطاب يسهم في خلق اتصال تحاوري مع الآخر في سياق الحقيقة وذلك من خلال مبدع الخطاب ومتلقي ذلك الخطاب، وفي هذه المسألة فإن الخطاب مؤسس ومنتج من المجتمع والثقافة في آن معاً.²² كما ارتبط الخطاب عند فوكو بالفلسفة والمنطق فهو "عملية عقلية منظمة تنظيمياً منطقياً، أو عملية مركبة من سلسلة من العمليات العقلية الجزئية، أو تعبير عن الفكر بواسطة سلسلة من الألفاظ والقضايا التي يرتبط بعضها ببعض."²³

ويعرف فوكو الخطاب بأنه: "... هو أحياناً يعني الميدان العام لمجموعة المنطوقات (Enoncés) وأحياناً أخرى مجموعة متميزة من المنطوقات، وأحياناً ثالثة ممارسة لها قواعدها تدل دلالة وصف على عدد معين من المنطوقات وتشير إليها."²⁴ ويعرفه في موضع آخر بقوله: "مجموعة من المنطوقات بوصفها تنتهي إلى ذلك التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية قابلة لأن تتكرر إلى ما لا نهاية يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ ... بل هو عبارة عن عدد محصور من المنطوقات التي تستطيع تحديد شرط وجودها."²⁵

ويركز فوكو في تعريفاته على المنطوق وهو أبسط أجزاء الخطاب، يقول: "فقد استخدمت في مناسبات عديدة لفظ منطوق، إما لأشير به لعدد من المنطوقات .. أو لأميزه عن تلك المجموعات التي أسميها الخطابات (مثل ما يتجزأ الجزء عن الكل) ويبدو المنطوق لأول وهلة كعنصر أخير، أو جزءاً لا يتجزأ قابل أن يستقل بذاته، وقيم علاقات مع عناصر أخرى مشابهة له... المنطوق أبسط جزء في الخطاب."²⁶

وفوكو يشكك في موضوع تجنيس ضروب المعرفة التقليدية، ويطبق مقولته بالنظرة الراجعة لحقول الخطاب في: عصر النهضة، والعصر الكلاسيكي، والقرن التاسع عشر، و"لعل" أول ما يخضعه الفيلسوف لمبادئ طريقته الإجرائية في التقطع الواحد والحد والكشف عن الدرجات والمستويات وعوامل التبديل والتحويل في ظاهرة تقسيم الأنواع الكبرى للخطاب في الفكر الغربي بين أشكال وأجناس حددت لنا ما نعرفه ونألفه تحت مسميات الأدب أو الفلسفة أو التاريخ أو الخيال."²⁷

وأما هدف ميشال فوكو وراء تحليل الخطاب فيقول عنه عبدالله إبراهيم أنه "...يعني بالعبارة بوصفها شيئاً قائماً بذاته، لا تحيل على شيء آخر، إنما كونها تتصف بذاتها لا بغيرها، والتحليل ينص على ضروب الترابط بين العبارة، وما يتصل بها من عبارات أخرى، وصولاً إلى تحديد نظام الخطاب كله".²⁸

كما أن فوكو خلال عمله على تحليل الخطاب كان يهدف إلى اكتشاف هيكلية وبنائيه الخطاب، وصولاً إلى الأسس التي تحركه "إن محاولة (فوكو) بالتركيز على السبب الرئيسي لدراسة وتحليل الخطاب هي ببساطة ليس لكشف أساس وحقيقة الحديث، ولكن على الأصح لاكتشاف الدعم أو الدعامة الميكانيكية التي تحفظه في مكانه، وهذه الدعامة التي توجد في الحقيقة لاكتشاف نفسها، وأيضاً اكتشاف ما وراء المنطقية، وذلك بمعنى أنها تكون دعماً اجتماعياً ثقافياً".²⁹

وعن علاقة الخطاب بالسلطة والمعرفة يقول فوكو "في الخطاب بالذات، يحدث أن تتم فصل السلطة والمعرفة. ولهذا السبب عينة ينبغي أن نتصور الخطاب كمجموعة أجزاء غير متصلة وظيفتها التكتيكية غير متماثلة ولا ثابتة، بصورة أدق يجب أن لا نتخيل عالماً لخطاب مقسماً بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض، بل يجب أن نتصور كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل في استراتيجيات مختلفة: الخطاب ينقل السلطة وينتجها، يقويها، ولكنه أيضاً يلغمها، يفجرها، يجعلها هزيلة، ويسمح بإلغائها".³⁰ وفوكو هنا لا يفصل بين الخطاب وسلطة الخطاب، "إن الفصل الذي يمكن الحديث عنه هو فصل منهجي، ولكن في إطار نظرة تكاملية تناقش الخطاب في مختلف مستوياته اللغوية والمعرفية والسياسية والأخلاقية، مستويات تعكس مفهومه وامتداداته وعلاقته بحقول وممارسات معرفية وسلطوية وأخلاقية وهو ما يشير إليه فوكو في إرادة المعرفة".³¹

إن الخطاب عند ميشال فوكو يشكل سلطة، وينقل هذه السلطة وينتجها ويقويها ويلغمها ويفجرها، ويمكن أن يجعلها هزيلة ويسمح بإلغائها - على حد قوله - كما يلعب دوراً أساسياً مماثلاً بالنسبة للخطابات الأخرى، إذ أن هذا الخطاب قد يقوم بالنسبة لها، بدور "النموذج الصوري" الذي تحاول أن تطبقه في حقولها الدلالية المختلفة، وقد يكون على العكس، نموذجاً معبراً عن خطابات أكثر تعميماً وتجريداً منه، وقد يكون مرتبطاً بعلاقة بارزة من التشابه أو التعارض مع خطابات أخرى في مجال بعيد نسبياً".

وإذا كان للخطاب سلطة يمارسها على ما حوله من مجتمع وبشر ومؤسسات فإنه أيضاً - الخطاب - انعكاس لسلطة، والخطاب أحد عناصر السلطة، كما أن السلطة تعمل من خلال الخطاب، "إن التحليلات التي يقوم بها فوكو لا تناقش الخطاب انطلاقاً من الذات أو المؤلف أو الفاعل، ولكنها تختبر مختلف الأدوار أو الوظائف التي يقوم بها الخطاب، داخل نظام استراتيجي أو سلطوي. ينتج عن هذا السلطة ليست خارج الخطاب، ولكن هذا لا يعني أن السلطة مصدر أو أصل الخطاب، بل أن السلطة تعمل من خلال الخطاب، ما دام الخطاب ذاته يشكل أحد عناصر الجاهزية الإستراتيجية لعلاقات السلطة".³²

كما يتحدث فوكو عن العلاقة بين الخطاب والذات، موضحاً أن الذات تنشئ الخطاب، ولكن الخطاب يكشف الذات، وبعثها، يقول: "وبدلاً من أن يعمل التحليل الذي نقترحه هنا، على إحالة مختلف صيغ التعبير على التركيب، أو الوظيفة الموحدة للذات، فعنه يجعل تلك الصيغ نفسها تكشف عن تبعثر الذات كما يحيل الذات إلى مختلف الأوضاع والمواقف التي تشغلها عندما تتلفظ بخطابها".³³

إن العناصر التي يطرحها فوكو على أنها أطراف في تشكيل الخطاب وتلقيه، لا يعد أحدها منتجاً والآخر مستهلكاً، وإنما هي أطراف تشترك معاً في إنتاج الخطاب وتلقيه في عملية تبادلية، إذ لا تعود مرجعية الخطاب إلى الذات أو إلى المؤسسة أو إلى الصدق المنطقي أو إلى قواعد البناء النحوي، وإنما على الممارسة، الممارسة الخطابية وغيير الخطابية، على أن نفهم العلاقة بين الممارسات ليس على أساس السبب والنتيجة، وإنما على أساس العلاقة التبادلية.

لم يكن فوكو السنيّاً، وكان يرفض إدراجه ضمن النقاد البنيويين، وإنما كان عمله فلسفياً بالدرجة الأولى، ويبحث في قوانين تكوين مفهوم الخطاب وتحويله وتلقيه، وهو ما كشف عن سلطة الخطاب وقدرته، وفي الوقت ذاته كشف عن الآليات التي تحكم إنتاجية، وتحد سلطته أيضاً، وإذا كان ثمة علاقة يمكن افتراضها بين ما قدمه فوكو في أعماله حول الخطاب، وبين موضوع الدراسة فلعلها تتمثل في كون اللغة أحد عناصر تميل الخطاب. "إن بنية الثقافة، بممارستها النظرية والتحليلية، وبالفاعل الذي ينهض بها وهو الإنسان، تتمثل خطابياً، وعليه،

فالخطاب هو ميدان التحليل، والخطاب ضرب من تضافر الإشارات تكون اللغة فيه عنصراً تمثيلاً بين عناصر أشارية أخرى".³⁴

في حين لم يشر الأوائل من اللسانيين المحدثين أمثال دي سوسير، وجاكبسون، وهلمسليف إلى مفهوم الخطاب، فـ "بول ريكو (P. Recourd) يستخدم مفهوم الخطاب عوضاً عن الكلام ويستبدل ثنائية دي سوسير (desoussur) اللسان / الكلام، بثنائية اللسان / الخطاب، وريكو ناحيته يضع الخطاب بدلاً من الكلام، ليس ليؤكد خصوصية الخطاب بل ليفرق بين علم الدلالة والسمياء، إن السيمياء في رأيه تدرس العلاقة بينما علم الدلالة يدرس الخطاب أو الجملة".³⁵

ويذكر مانجنون (Mainguenu) أنه: "ينبغي ونحن نتحدث عن الخطاب أن نقطع الكلام في سياق تلفظ مفرد وأن نتحدث عن نص ونؤكد ما يصنع الخطاب وجدته. فالنص في الحقيقة كل وليس مجرد متتالية من الجمل"³⁶ وبذلك يكون الخطاب نصاً مفتوحاً من جهة وضعيات التواصل أو على سياق التعامل بالقول، ومن جهة أن يجعل النص مندرجاً في نسق أكبر منه وهو الجنس، فالنصوص مختلفة ترتبط بالخطاب ارتباطاً بالجنس (ارتباط النوع بالجنس)، فالخطاب يمكن أن تعدده جنساً من أجناس يحوي بدوره جزئيات فرعية، وهذه الأجناس الفرعية تتشكل في صور نصوص، وكل جنس فرعي من الأجناس الخطابية له بنيته الخطابية الخاصة، كما يري ذلك هليدي (Hallidy).

ويعني هذا أن لكل نص بنيتين: بنية ذاتية هي التي فيه، وبنية يشترك فيها مغيره هي بنية الخطاب.³⁷

وهذه البناء ينتج نسيج المادة الخطابية لأنها مادة شاملة لجميع المواد كما أسلفنا عبارة عن أجناس متكاملة تتداخل بها نصوص وأصوات وحركات وإيماءات وإيحاءات داخل (الخطاب) كما في أعمال بارت (R. Barthes) وأعمال جنييت (G. Genette) من هذه الظاهرة التداخلية فسميت بـ (Intertext) كما سميت بمسميات مختلفة، وقال بارت عن هذا: "كل نص إنما هو تداخل بين النصوص Interiext ففيه تحضر نصوص أخرى في مستويات متنوعة وتحت أشكال قابلة نسبياً أن تتذكر، نصوص الثقافة السابقة ونصوص الثقافة المحيطة، فكل نص

هو نسيج جديد من الشواهد المتطورة³⁸، وبهذا برز ظاهرة التناص وهي نابعة من تداخل المعاني وتشابه الأغراض، وربما الأساليب التي تعبر عن المعاني والأغراض.

ويرى روجر فاوولر أن: الخطاب هو كلام أو كتابة مدركة من وجهة نظر المعتقادات والقيم والفئات التي جسدها، فهو: إذن يشكل طريقة نظر إلى العالم، تنظيماً أو تمثيلاً للتجربة – الإيديولوجيا في المعنى الطبيعي أو المقبول للمصطلح، بينما تركز الأساليب المختلفة للخطاب إلى التمثيلات المتعددة للتجربة، وأصل هذه التمثيلات في السياق التوصلي الذي يكون فيه الخطاب مجسداً.³⁹

وعند مكدونيل: كل شيء يدل أو يحتوي على معنى يمكن أن يعد جزءاً من الخطاب.⁴⁰ وتشير سارة ميلز (Sara Mills) في كتابها الخطاب (Discourse) إلى تعدد الخطابات بتعدد النصوص المكونة لها، خصوصاً إذا ما أدركنا أن الخطاب هو التصور المجرد العام بينما النص هو المتحقق الفعلية له، وتتعرف ميلز بصعوبة العثور على معنى بسيط وواضح للخطاب.

فهو عبارة عن توصيل لرسالة ما عبر اللغة، واللغة أداة شفافة تحمل مقاصد المتكلم إلى المتلقي أو تحمل الرسالة من المرسل إلى المرسل إليه، وتشتمل على لغة وكلام، فهو تواصل لغوي لكن على نطاق واسع، فاختلف اللسانيون في إيراد معنى الخطاب فلا يكفیان يقال أن الخطاب يتشكل من أكثر من جملة فإيراد عدد من الجمل بصورة اعتباطية مثلاً لا يصنع خطاباً: فأني نسق من الجمل لا بد أن يترابط لكي يصنع خطاباً".⁴¹

وعليه فيمكن تعريف إستراتيجية الخطاب، بأنها: عبارة عن المسلك المناسب الذي يتخذه المرسل للتلفظ بخطابه من أجل تنفيذ إراداته والتعبير عن مقاصده التي تؤدي لتحقيق أهدافه من خلال استعمال العلامات اللغوية وغير اللغوية وفقاً لما يقتضيه سياق التلفظ بعناصره المتنوعة، ويستحسنه المرسل. "وقد مخض النقاد لهذه الظاهرة مصطلح (الاحتيايل) واعتبروه سلاح المتكلم في مواجهة المخاطب الموصل بسياسته إلى مبتغاة، فمصدر التأثير الذي يكون للكلام في السامع إنما هو (الحيلة) (...) ويخلو مفهوم (الحيلة) لدى النقاد القدامى من كل دلالة سلبية فهو عندهم مظهر من مظاهر الحذق وأمانة من أمارات جودة النظر، وما الاحتيايل إلا وسيلة لتحصيل المتكلم على مرغوبه.⁴²

وإذا كانت الخطابات، هي إنجاز للأفعال اللغوية في الأساس، بما في ذلك تحدي الإشارات، والتعبير عن المقاصد، وتحقيق الأهداف، فإن كيفية إنجازها وتوظيفها في السياق، هو ما يحدونا إلى دراسة اللغة في استعمالها، دراسة تداولية، تعني بكيفية إنتاج الخطاب، بوصفها محور إستراتيجياته، وعليه، فإستراتيجية الخطاب، في أصلها، هي عملية ذات وجهين متلازمين، بوصفها عملية أنية، في مرحلة إنتاج الخطاب الأولى، ويوصف الخطاب تجسيدا لها، في مرحلتها الأخرى، إذ لا تتضح إلا بالتلفظ به، ويرتكز التلازم بين هذين الوجهين فيها، من خلال توليد الخطاب عبر خطوات، تكون الأسئلة السياقية المتوالية هي أساسها، فهي تربط بين الخطاب من جهة وبين السياق متجهة أخرى، فالخطاب، أي خطاب، هو نتيجة لإستراتيجية معينة، ولتوليده، ثلاث مراحل، هي:⁴³

- 1- إدراك السياق الذي يجري فيه التواصل بكل أبعاده المؤثرة.
 - 2- تحديد العلاقة بين السياق والعلاقة المستعملة، ليتم اختيار الإستراتيجية الخطابية الملائمة.
 - 3- التلفظ بالخطاب.
- أما عناصر بناء الخطابة عند أرسطو ثلاثة:⁴⁴
- 1- وسائل الإقناع أو البراهين.
 - 2- ترتيب أجزاء القول.
 - 3- ثم عنصر الإلقاء الذي اعتبره الدارسون للخطابة بعد أرسطو، ومنهم البلاغيون العرب، عنصرها مستقلا، ويتضمن الحركة والصوت.
- وهناك الوسائل الثلاثة لإحداث الإقناع، كما يقول الدكتور محمد العمري، ومن يملكها يجب أن قادراً:⁴⁵
- 1- على التفكير المنطقي.
 - 2- وعلى فهم الخلق الإنساني والخير في مختلف أشكالها.
 - 3- وأن يفهم الانفصالات.
- الخاتمة:

في نهاية هذا المبحث المتعلق بمفهوم الخطاب يمكن إجماله بمجموعة من الخلاصات التي تؤكد أن الخطاب أداة أساسية في التواصل تحكمها قوانين وقواعد اجتماعية ولغوية، فالخطاب عموما يندرج ضمن ما يلي:

- 1- مدونة كلامية.
- 2- حدث، كل خطاب هو حدث يقع في زمان ومكان ولا يعيد نفسه إعادة مطلقة.
- 3- تواصلية: لتوصيل المعلومات والمعارف.
- 4- تفاعلي: بوصفه وظيفة معززة للتواصل.
- 5- مغلق، أي انغلاق سمته الكتابية الأيقونية التي بها بداية ونهاية.
- 6- تداولي: فالحدث اللغوي ليس منبثقا من عدم، بل متولد من أحداث تاريخية ونفسانية واجتماعية، وتتناسل فيها أحداث لغوية. وعند فهم الخطاب فإن ذلك يعود إلى جملة من الأسباب التي يمكن أن تبرز وتبين السياق العام للخطاب وهي:
- إن كل حقل ثقافي ينظر إلى الخطاب من زاوية حاجته له، فاللسانيون يرون منه اللغة في حالة فعل (كلام)، والمفكرون والفلاسفة يرونه إيديولوجيا والفقهاء يرونه ممارسة أو شكلا أدبيا.
- انقسام النقاد والمفكرين في التعامل مع الخطاب بوصفه عملا أو بوصفه إيديولوجيا، مما أكثر من تخصصات المفهوم.
- توسع مفهوم الخطاب إلى الحد الذي يسوغ لبعضهم أن يجعل كل ما يدل على شيء أو كل ما له معنى أن يعد جزءا من الخطاب، مما جعل نظريات الخطاب الحديث ليست متناسقة، وهذا ما أوقع بعض الدارسين في ممارسات مجانبية للمصطلح.
- وإذا أردنا رصد الخطاب ضمن تياره الأساسيين الألسني والثقافي، فإننا نجد ما يلي:
- أ- إن الخطاب ألسني وحدة لغوية أشمل من الجملة، فهو نظام من ملفوظات نشأ من اشتغال اللسانية على الكلام بوصفه مظهرا يخص كل فرد على حدة، فالخطاب فردي المصدر بنيّة التواصل والتأثير، ممّا يفعل دور المتلقي.
- ب- الخطاب ثقافيا طريقة خاصة في التعبير عن مفردات معينة في المعرفة الاجتماعية، على نحو يلزم وضع حدود خاصة لكل خطاب بالتعدد الذي تجوّزه هذه الحدود، كما أنّ الخطاب ليس وحدة لغوية مفارقة، بل وحدة

بين وحدات الفعل الإنساني والتفاعل والاتصال والمعرفة، وأنه ليس كيانا ثابتا جامدا من الكلمات والدوال، وإنما حقل فعال من المشاغل والاهتمامات والتوترات والصراعات والتناقضات التي تكشف عن تنظيم المجتمع ومؤسساته وأبنيته القوية وأدوارها مضمنة، لذا فتحليل الخطاب يجب أن يكون مرتبطا بالخطابات الفعلية وليس بالأمثلة الموجزة أو المصطنعة.

ويوجز الدكتور حسن حنفي مناهج وطرق تحليل الخطاب في:⁴⁶

1- منهج تحليل المضمون في العلوم الاجتماعية لتحليل الخطاب الديني أو الخطاب السياسي، النبوءات أو الزعامات.

2- منهج التحليل اللغوي النفسي كما هو الحال في علم اللسانيات النفسي (Psycho-Linguistics) من أجل معرفة دلالة الألفاظ على نفسية قائلها.

3- منهج التحليل اللغوي الاجتماعي من أجل معرفة الدلالات المعرفية وآليات الاستعمال الاجتماعي للغة، كما هو الحال في علم اللسانيات الاجتماعي (Socio-Linguistics).

منهج التحليل اللغوي الخالص كما هو الحال في علم اللسانيات العام (General Linguistics) من حيث علوم الأصوات والقراءات والتراكيب.

الهوامش:

1- أنظر: حسن حنفي، تحليل الخطاب العربي، المؤتمر العلمي الثالث، جامعة فيلادلفيا – كلية الآداب، مراجعة وتحديث د. صالح أبو أصبع، د. غسان إسماعيل عبد الخالق، 1988، ص 17 – 19.

*-يفضل الدارسون كتابتها على النحو Socio- Linguistie.

2 _ المرجع نفسه، ص 22.

3- إدريس بلميلج، مكونات الخطاب عند عبد الله العروي من خلال مفهوم الدولة، في (الخطاب السياسي في المغرب)، منشور كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم (99)، 2002 م، ص 95 – 96.

4- نفس المرجع، ص 97.

5- محمد السيد، خطاب اليسار المغربي: النشأة والتطور، في (الخطاب السياسي في المغرب)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2002، ص 55.

6 _ المرجع نفسه، ص 56.

7 _ المرجع نفسه، ص 57.

8 _ المرجع نفسه، ص 97- 98.

- 9_ محمد مرتضي الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الجيل، الكويت، تحقيق علي هلال، 1966 ج 2، ص 376، وابن كثير إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تحقيق إبراهيم البنا وزميله، ط1، القاهرة، ج 7، ص 51.
- 10_ محمد سعيد أسير، وبلال الجنيد، معجم الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها، ص 476 – 477.
- 1_ ورد في: فريال محمد القضاة، الخطاب الروائي عن أمين معلوف، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، 2002م، ص 8.
- 2_ ابن منظور: لسان العرب، ورد في: مج 4، ص 135، مادة "خطب".
٣. تنطلق الدراسات الانجلو – أمريكية من مدرسة بإمكان التي تحصر الخطاب في الحوار، وكذلك يهب "مايكل سناير" في كتابه: "تحليل الخطاب" 1983م، إلى استعمال الخطاب مقابل للحوار. أنظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 25.
- 3-1 أبو البقاء الكفوي، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، القسم الثاني، ص 286.
- 4-1 المرجع نفسه، ص 286.
- 5-1 أنظر: فخر الدين الرازي، المحصول في علم أصول الفقه، ج 1، ص 581.
- 6-1 أنظر: محمد خطاي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، الباب الثاني.
- 7-1 الغدامي، عبد الله محمد، الخطبة والتفكير، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط1، 1405 هـ، 1985م، ص 30.
- 8-1 أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، دار عوידات، بيروت، ط1، 1996، ج 1، ص 287.
- 9-1 خليل أحمد خليل، معجم المصطلحات الفلسفية، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995، ط1، ص 71.
- 0-2 سامي عياد حنا، كريم يحيى حسام الدين، نجيب جريس، معجم اللسانيات الحديثة، مكتبة لبنان ناشرون – لبنان، ط1، 1997، ص 40.
- 1-2 الخطاب من النظرية الأدبية إلى الأنساق السمع بصرية.
- 2-2 سليمان مختار إسماعيل، الخطاب الديني في قصيدة المديح الأموية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، 2004، ص 8.
- 3-2 جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية، ج 1، دار الكتاب اللبناني – بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1978، ص 204.
- 4-2 ميشيل فوكو، حفرات المعرفة، ت: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص 78.
- 5-2 المرجع نفسه، ص 111.
- 6-2 مهي محمود العتوم، تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث، دراسة مقارنة في النظرية والمنهج، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، 2004م، ص 16.
- 7-2 محمد علي الكردي، الخطاب والسلطة عند ميشيل فوكو، فصول، مج 11، ع 1، 1992، ص 40.
- 8-2 عبدالله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1999، ص 104.
- 9-2 ساراميلز، مفهوم الخطاب في الدراسات الأدبية والغوية المعاصرة، ت: عصام خلف كامل، دار فرحة للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2003، ص 71.
- 0-3 ميشيل فوكو، إرادة المعرفة، ت: جورج أبي صالح، مراجعة وتقديم: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط1، 1990، ص 108 – 109.
- 1-3 مهي محمود العتوم، مرجع سابق، ص 17.
- 32- الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2000، ص 133.

- 3- ميشيل فوكو، حفریات المعرفة، ت: سالم يفوت، مركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1986، ص 53.
- 4- الزواوي بغودة، م **رجع سابق**، ص 143.
- 5- نقلاً عن: د. عيسى عودة برهومة، تمثيلات اللغة في الخطاب السياسي، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد (1) المجلد 36، يوليو – سبتمبر 2007، ص 120.
- 6- المرجع نفسه، ص 121.
- 7- المرجع نفسه، ص 121.
- 8- توفيق قريرة، التعامل بين بنية الخطاب وبنية النص، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع 1، مج 32، 2003م، ص 17.
- 9- **المرجع نفسه، ص 18.**
- 0- ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية العربية، ط1، 2001م، ص 123.
- 1- د. عيسى عودة برهومة، مرجع سابق، ص 122.
- 2- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2002م، ص 62.
- 3- المرجع نفسه، ص 63.
- 4- د. محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطاب في القرن الأول نموذجاً، أفريقيا الشرق، بيروت، 2002 م، ص 20.
- 5- **المرجع نفسه، ص 25.**
- 46- د. حسن حنفي، تحليل الخطاب، قضايا إسلامية معاصرة، الفلاح للنشر والتوزيع، بيروت، العدد التاسع عشر، 1423 هـ، 2002 م، ص 233، 234.